



## نقد المدنيّة الغربيّة من منظور الرّحالة العرب (أحمد فارس الشدياق أنموذجًا)

غيضان السيد علي \*

### مقدّمة

يُعدّ أحمد فارس الشدياق (1804م - 1887م) من أهمّ الرّحالة العرب في عصر النهضة العربيّة الذين عاشوا مرحلةً طويلةً في أوروبا (فقد استغرقت رحلاته إلى أوروبا أكثر من 25 عامًا)؛ أي أنه عاش ما يقارب من ثلث عمره مُتنقلاً بين بلاد الغرب الأوروبيّة ما بين مالطة وإنجلترا وفرنسا، وقضى ما بقي من عمره مُتنقلاً في بلاد الشرق ما بين لبنان (مسقط رأسه)، ومصر، وتونس، وتركيا؛ أي أن حياته كلّها كانت عبارة عن ترحالٍ دائمٍ وأسفارٍ لم تنتهِ حتّى وفاته. وقد كان الشدياق أكثر الرّحالة العرب اطلاعاً على علوم أوروبا وآدابها ومظاهر حضارتها ومدنيتها، فلم يكتفِ بسرد ما شاهده في تلك البلاد؛ وإنما عكف على تحليل مضامين تلك النهضة الأوروبيّة؛ كي يتمكن من الوقوف على أسبابها الحقيقيّة، وكي ينتقي منها ما يراه مناسباً وملائماً لقيام نهضة عربيّة، مُؤكّداً أنّ الفكر والإبداع ليسا حكراً على الغرب وحده؛ وإنما هما حقٌّ أصيلٌ لكلّ الشُّعوب والأمم إذا ما توفّرت البيئة المناسبة. وقد كانت النزعة التّقدّية - بكلّ ما تحمله من معانٍ -

\* أستاذ الفلسفة الحديثة المشارك بكلّيّة الآداب جامعة بني سويف -جمهورية مصر العربيّة

من أهمّ ما ميّز آثار الشدياق العلميّة من كتب ومؤلّفات عن رحلاته العديدة إلى أوروبا؛ ما جعل بعضهم يضعها ضمن أهمّ ثلاث رحلات كان لها أعمق الأثر في بدء نهضتنا الحديثة<sup>1</sup>؛ إذ وقف صاحبها على أشياء كثيرة من خصائص الغرب وأخلاق أهله وعاداتهم، ومذاهبهم في السياسة والفن والأدب؛ وأودع كتبه ما وقف عليه، وما دهش منه؛ مُستهدفاً إيقاظ الشّرق من رقدته، وحثّه على الأخذ بأسباب العلم والحضارة.

### حياة أحمد فارس الشدياق

وُلد «فارس بن يوسف بن يعقوب بن منصور بن جعفر بن شاهين بن يوحنا» في قرية عشقوت في لبنان في العام 1804م على أرجح الأقوال وأشهرها، وإن كان هناك اختلاف بين الباحثين في تحديد العام الذي وُلد فيه، إلا أنّهم أجمعوا على أنه وُلد في المرحلة ما بين (1801م - 1805م). ولُقّب بألقاب عديدة منها «السياسي الشّهير» و«الصّحافيّ ذائع الصّيت»، إلا أنّ أشهر ألقابه على الإطلاق «الشدياق»؛ وهي رتبة كهنوتية أقلّ من الكاهن (رئيس الشماسة باللّغة اليونانية). والشدياق - أيضاً - لقب تشريفيّ يُطلق على العالم المُتبحّر في العلم، المُلمّ ببواطن الأمور وظاهرها، البالغ في ذلك مرتبةً رفيعةً. وقد نشأ الشدياق في عائلة ميسورة الحال؛ إذ كان أبوه جابياً للضرائب، وأحد عمّال الأمير حيدر الشهابي، وكان ناسخاً للكتب، وأديباً مُحبّاً للعلم والمعرفة، واقتناء أهمّ الكتب وأشهرها، حتّى أصبح لديه مكتبة عظيمة صارت مضرب الأمثال بين أبناء قريته. وقد ورث أبناؤه عنه حبّ المطالعة واقتناء الكتب؛ فكان أخوه «طنوس» من أكابر السّاسة وعلماء التّاريخ في عصره، وأخوه «منصور» عالمًا باللّغات، وأخوه «أسعد» مُلمًّا بعلوم عصره في الدّيانات والمذاهب والفلسفة، وكان أقرب أخوة فارس إليه، وكان أخوه «غالب» كاتبًا في الدّواوين عند محمد علي باشا في مصر، وبشير الشهابي في لبنان. ولذلك، أظهر فارس الشدياق، منذ نعومة أظفاره، ميلاً كبيراً نحو القراءة وتحصيل

1- أشار إلى ذلك شفيق جبيري الذي وضع رحلات أحمد فارس الشدياق مع رحلات رفاعة الطهطاوي، ومحمد كرد علي بوصفها أهمّ ثلاث رحلات أثّرت في بدء النهضة العربيّة الحديثة (انظر: شفيق جبيري، ثلاث رحلات: الطهطاوي- الشدياق - كرد علي، مجلّة المجمع العلميّ العربيّ، الجزء الثالث، المجلّد الرابع والثلاثون، تموز 1959، ص 385).

المعرفة؛ ما جعل الشدياق صاحب حصيلة معرفية كبيرة مكنته من ممارسة التقد لهؤلاء الرجعيين الذين اشتبك معهم في معارك فكرية طاحنة.

لقد أدى اطلاع أفراد الأسرة على المذاهب الدينية المختلفة أن اعتنق أسعد شقيق فارس المذهب البروتستانتي تاركاً الملة المارونية، وأصبح ملازماً للمبشر الأمريكي إسحاق بيرد Ishac Beard، واستطاع أن يقنع فارس بذلك المذهب حتى أصبح الشدياق الصغير من المبشرين بذلك المذهب. ولمّا قبض على أسعد وتمّ سجنه في دير «قنوين» ثمّ موته بعد مرحلة تعذيب قاسية في دير الموارنة، عمل إسحاق بيرد على تهريب فارس الشدياق - الذي كان قد اعتنق المذهب البروتستانتي - على ظهر سفينة متوجهة إلى الإسكندرية في العام 1825م، وأرسل معه مكتوباً إلى مبشر في مصر؛ كي يُسهّل له مهمّته في السفر إلى مالطة. ولكن ما إن وصل الشدياق إلى الإسكندرية وتعرّف إليه المبشر حتى أُعجب بذكائه وسعة اطلاعه، ورأى أنّ من الأفضل استبقاءه في مصر، ولكن بيرد رفض ذلك حتى لا يغريه جو مصر بترك الزهد والتبشير، وسافر إلى مالطة، حيث قضى هناك عاماً، أو يزيد قليلاً، ولكن الجو الرطب في مالطة أصاب الشدياق بداء المفاصل؛ ما جعله طريح الفراش بشكل دائم، فقرر العودة إلى مصر.

عاد فارس الشدياق إلى مصر مرة أخرى، واستطاع أن يلتحق بوظيفة في جريدة الوقائع المصرية التي أسسها الوالي محمد علي باشا لتكون موالية لنظام حكمه، وتزوّج من فتاة ذات أصول سورية تدعى «وردة الصولي»، كانت جارة له في مصر، على الرغم من أنها كانت على المذهب الكاثوليكي ما اضطرّ الشدياق أن يعتنق المذهب الكاثوليكي، ولو ليوم واحد كما اشترط والد الفتاة. ومكث الشدياق في مصر سبعة أعوام وقيل تسعة أعوام، وفيها بدأت الإرهاصات الأولى لقصة إسلامه من خلال تتلمذه على شيوخ الأزهر، واتّصاله بأعلام الإسلام؛ ما جعله يتأثر بتعاليم الإسلام السّميحة، فأخذ يُناقشُ تعاليم الدين الإسلامي، ويقارن بينها وبين المذاهب المسيحية وغيرها من الأديان التي كان على علم بها نتيجة لثقافته الواسعة. ثمّ رحل ثانية إلى مالطة في العام 1834م، ولكنّه مكث تلك المرّة فيها أربعة عشر عاماً. ثمّ سافر منها إلى إنجلترا وفرنسا ف قضى فيهما عشرة أعوام. ثمّ انتقل إلى تونس، وهناك أعلن إسلامه في العام 1857م، وسَمّى نفسه «أحمد فارس»، واستقرّ في «إسطنبول»، حيث أطلق جريدته الغراء «الجوائب» في العام 1881م، والتي عدّت

من أشهر الصُّحف العربيّة آنذاك. وقد ترك الشدياق العديد من المؤلّفات، منها: «السّاق على السّاق في معرفة الفاريق أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام» و«الواسطة في معرفة أحوال أهل مالطة» و«كنز اللّغات» و«منتهى العجب في خصائص لغة العرب» و«سرّ اللّيال في القلب والإبدال» و«فلسفة التربية والآداب» و«كنز الرّغائب في منتخبات الجوائب».

توفي الشدياق في صيف العام 1887م في إسطنبول، فصدرت الإرادة السّنيّة بدفنه في تربة السّلطان محمود الثاني، إلّا أنّ ابنه سليماً الذي كان برفقة والده في إسطنبول التمس من السّلطان عبد الحميد أن يدفن والده في قرية الحدث مسقط رأسه حسب وصيّته التي أوصاه إياها قبيل وفاته، ومن ثمّ، سمح له السّلطان، فنقل جثمان الشدياق على متن باخرةٍ نمساويّةٍ إلى لبنان، وهناك استقبله العديد من رموز العلماء المسلمين وأكابرهم، ونقباء الأشراف، وشيوخ الصّوفيّة، وصلّوا عليه جميعاً في المسجد العمري في بيروت.

في ما يلي، نلقي الضّوء على طبيعة رحلة الشدياق إلى أوروبا حتّى يتسنى لنا معرفة أهمّ نقاط القوّة والضعف في المجتمع الغربيّ في أعين أهمّ رحّالة عربيّ، وصاحب أطول رحلة في بلاد الغرب، والذي حذّر من التّقليد الأعمى للغرب، والتّسرّع في العدو وراءه، مرّتين أنّ ذلك لن يؤدّي إلّا إلى فكرٍ ممسوخ لا معالم فيه؛ لتهمّ هذه الدراسة ببيان كيفيّة انتقاد الشدياق كثيرًا من مظاهر المدنيّة الغربيّة، والحذر من انتشارها في المجتمعات الإسلاميّة. وكيف خطّط الشدياق لتطبيق ما رآه مفيداً في الغرب في المجتمع الإسلاميّ بعد العودة؛ حتّى نقف في الختام على تقويم دقيقٍ لوصف الشدياق لمظاهر المدنيّة الغربيّة، وذلك من خلال النّقاط الآتية.

### تفرّد رحلة الشدياق إلى أوروبا وعمقها

عالجت الكثير من كتب الرّحلات أحوال أوروبا إيّان عصر النّهضة في القرن التّاسع عشر، غير أنّ تناول الشدياق يُعدّ تناولاً فريداً من نوعه؛ إذ إنّه عاش ثلث عمره في أوروبا، فكان كأهلها خبيراً بخبايا أحوالها. لذا، لم يكتفِ بسرد ما رآه في مالطة وفرنسا وإنجلترا؛ بل كانت نظرتّه أعمق من ذلك بكثير؛ حيث عكف على تحليل أسباب نهضة أوروبا مُنتخباً منها ما يراه مناسباً لقيام نهضة عربيّة، مؤكّداً أنّ الفكر والإبداع ليسا حكراً على الغرب وحده إذا ما توفّرت عوامل البناء.

كما تميّزت الرحلة بكثرة ما ورد فيها من إحصائيات مهمّة، ومعالجات للعديد من القضايا: الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية الموجودة في أوروبا آنذاك.

أسفرت رحلة «الشدياق» إلى أوروبا عن مجموعة كتابات كان أشهرها «كشف المُخَبِّا عن فنون أوروبا»، و«الواسطة في معرفة أحوال مالطة»، و«السَّاق على السَّاق فيما هو الفارياق»، وغيرها... هي عصارة خبرته ومشاهداته وتحليلاته قدّمها إلى القارئ العربيّ علّه ينجح في اقتفاء آثارها؛ فيستيقظ من سُباته العميق، ويأخذ بأسباب العلم والحضارة والتّمُدُن؛ إذ لم ينهر الشدياق بمظاهر الحضارة الأوروبيّة، ولم يقع في شرك الإعجاب والانبهار بها؛ وإنّما وقف منها وقفةً مُحايدة موضوعيّة، حرص من خلالها على قراءة تلك الحضارة، والوقوف على جوهرها، وفحص أفكارها. فتميّزت نظرتة إليها بالواقعيّة، وتركّزت تحليلاته لها على بيان إيجابيات المدنيّة الغربيّة وسلبيّاتها؛ إذ يقول: «ويعلم الله أنّي مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت ما فيها من الرغائب، كنت أبداً مُنغص العيش مكدره. كمن فقد وطره، ولزمتة معسرة. لا يروقني نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة. ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو. لما أنّي كنت دائم التّفكر في خلو بلادنا عمّا عندهم من التّمُدُن، والبراعة والتّفنُن. ثمّ تعرّض لي عوارض من السلوان، بأنّ أهل بلادنا قد اختصّوا بأخلاق حسان، وكرم يغطّي العيوب، ويستتر ما شان، ولا سيّما الغيرة على الحرم، وصور العرض عمّا من في هذا الصّواب يندم. ثمّ أعود إلى التّفكر في المصالح المدنيّة، والأسباب المعاشيّة، وانتشار المعارف العموميّة، وإلى إتقان الصّنائع. وتعميم الفوائد والمنافع. فيجفل ذلك السلوان، وأعود إلى الأشجان»<sup>1</sup>. فكشف بذلك عن خبرته في الانتقاء، وقدرته على التّقيد والتّقويم. وأعرب- في الوقت نفسه- عن أصالة أفكاره، وصدق انتمائه، وولائه إلى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ودرايته المبكرة بنوايا الغرب الاستعماريّة. ذلك فضلاً عن قدرته الفائقة في التّمييز بين خصال كلّ قطر من الأقطار الأوروبيّة التي عاش فيها (مالطة- فرنسا- إنجلترا)، والمقارنة بينها، وإبراز تباين الجوانب الاجتماعيّة والسّياسيّة والأخلاقيّة والعلميّة في كلّ منها. وقد تميّزت كتاباته من غيرها من كتابات الرّحالة العرب الآخرين، حيث إنّهُ لم يكتف بالمشاهدات العابرة في الوصف، أو الإخبار؛

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخَبِّا عن فنون أوروبا، تقديم عصمت نصار، دار الكتاب

بل أثر التّعويل على الكتب التّاريخيّة، والعلميّة، والفلسفيّة؛ للوقوف على حقيقة مشاهداته، ويبدو ذلك بوضوح في أحاديثه عن المذاهب السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة، والجماعات الدينيّة، وتاريخ المخترعات، ومعالم المدن.

فكان أهمّ ما ميّز رؤيته ويبيّن تفردّها أنّه كشف عن الكثير من المخازي في الحضارة الغربيّة، ولم يقع أسيراً للجانب البرّاق منها فقط، وإن حرص على الإشادة بها، وضرورة الاستفادة منها، في نظرة موضوعيّة لمعنى التّقدّم والمدنيّة. ولذلك، حذّر الشدياق من التّقليد الأعمى للغرب، والتّسرّع في العدو وراءه؛ لأنّ ذلك لن يؤدّي إلّا إلى فكر ممسوخ لا معالم فيه. ونادى بأنّ الطّريق الأمثل هو دراسة واقع الذات وحاجاتها، ثمّ البحث عن تلك النّواقص عند الآخر.

لذلك، تُعدّ رحلات الشدياق إلى أوروبا من أهمّ رحلات المُفكرين العرب في العصر الحديث، إن لم تكن أهمّها على الإطلاق، حيث عكست وعياً حقيقيّاً بالثقافة العربيّة والمدنيّة الغربيّة معاً، وأعربت عن رؤية واقعيّة في تحديد سبب الانتقاء عن طريق نقد الموروث والوافد المُستحدث. فقد تخطت مآرب الشدياق نطاق الوصف، أو التّثقيف، أو رؤية الغرب بعيون عربيّة؛ بل كان هدفه الأول هو تقويم الذات في ضوء الآخر، وتفعيل طاقتها عن طريق الإصلاح، حتّى نتمكن من مُحاورة الآخر ندّاً لنُدّ بعد دفعه للاعتراف بوجودها.

إذن، لم تكن رؤية الشدياق إلى الغرب رؤيةً عابرةً تكوّنت عن تلقّ مُتسرّع من خلال زيارة، أو رحلة للتّسليّة والترفيه؛ وإنّما كانت رؤية عميقة بدأت في مرحلة مُبكرة من حياته وقبل قيامه برحلات إلى الغرب؛ من خلال اتّصاله المُبكر بالفكر الغربيّ عن طريق مطالعته في كتب الفلسفة، والدين، والأدب، ومختلف أنواع الثّقافة الأوروبيّة في لغاتها الأصليّة والتي كانت موجودة بوفرة في مكتبة أبيه. هذا فضلاً عن اتّصاله بالمُستشرقين في لبنان، وعمله في مدارس الأميركيّان في مصر؛ لتتّوجّج كلّ تلك الاتّصالات بالاتّصال المُباشر بالمجتمع الغربيّ خلال إقامته في مالطة وإنجلترا وفرنسا قرابة ربع قرن، واختلاطه برجال السّياسة، والأدب، ودوائر الاستشراق. ولذلك، كانت رؤيته عميقة بعيدة عن السّطحيّة، تكشف عن خبرة في الانتقاء، وقدرة على النّقد والتّقويم<sup>1</sup>.

1- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق- قراءة في صفائح المقاومة، دار الهداية، القاهرة،

## الدعوة إلى تفعيل الوجود الذاتي والابتعاد عن تقليد الآخر

رأى الشدياق أن الضامن الأوحد لوجود الذات هو تفعيل وجودها، والابتعاد تمامًا عن ابتضاع المذاهب من الآخر، وتوعية العقل الجمعي بأن نختار من الموروث ما يساعدنا في مواجهة الواقع المعيش، فالبقاء دائمًا للأصلح الذي يستمد قوته من إيمان ذويه بضرورة وجوده، فيبدلون أقصى طاقاتهم لتجديده وتحديثه، وتطويره بمنهجية العقلاء الأيقاظ الأصحاء. فذهب إلى أننا لسنا بحاجة إلى تعلم اللغات الأجنبية لنثرثر بها؛ بل للوقوف على حقيقة تاريخ الأغيار وآدابهم وعلومهم وفلسفاتهم. ولا يعني ذلك، بطبيعة الحال، أن يبلغ اهتمامنا بتلك اللغات درجة إهمالنا، أو طمسنا للغتنا؛ بل على العكس من ذلك تمامًا، ينبغي لنا إثراؤها بالمستحدث من المعارف حتى لا يصعب على الجمهور قبولها والانتفاع بها<sup>1</sup>.

هنا، يتبين لنا أن الشدياق تنبّه إلى أمر غاية في الأهمية ألا وهو انتهاج منهج الغرب في فحص ثقافتنا، حتى يمكن تنقيتها من الشوائب التي تحول بيننا وبين الالتحاق بركب الحضارة. ومن ثمّ، فهو لا يتنكر للموروث؛ بل يريد قتل ذلك التراث بحثًا بمنهج بحث حديثه، والتي رآها سائدة في الغرب للوقوف على كلّ ما هو ثمين في تراثنا للتمسك به، والبناء عليه، ونبذ كلّ ما عفا عليه الزمن وأصبح غير مناسب لهذا العصر. ومن ثمّ، رفع الشدياق شعار «ليس كلّ قديم نافع وليس كلّ جديد ضار». ولذلك، كان الطريق الأصوب عنده هو دراسة واقع الذات وحاجاتها ومتطلباتها، ثمّ البحث عن تلك النواقص لدى الآخر، فلا بأس من الاستفادة بمنجزات الآخر في كلّ ما نحتاج إليه، وذلك من خلال رؤية أكثر اتساعًا ترى ضرورة التعرف إلى الآخر، ثمّ الوقوف على جوهر أفكاره وعلومه وفحصها فحصًا موضوعيًا يتغيًا اقتباس الطريف والمبتكر منها لتحلّ محلّ المستبعد من سلبيات الذات. وفي ذلك يقول الشدياق: «ولا تكن كمن ينفق زيته في الليالي سهرًا على ذكر الأعصر الخوالي، فحسبك من آثار الزمن الحاضر ما يلهيك عن أذكار الغابر، إلا أن تريد بذكر الماضي عبرة تحضّ على اصطناع مبرّة. واللييب من استفاد علمًا وحكمةً من كلّ ما يمرّ عليه ويُذكر بين

1- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق-قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 176. وأيضًا، شفيق جبري، أحمد فارس الشدياق، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1987م، ص 84.

يديه، ولا يشتغل إلا بما يعنيه، ولا يطلب ما يشقيه»<sup>1</sup>.

إذن، رام الشدياق ربط الحاضر بإيجابيات الماضي، في موازنة لا تجعل منه محافظاً يجعل من التراث القاعدة التي ينطلق منها للتجديد والتحديث، ولا تجعله من دعاة التغريب الذي يرى في الأنموذج الغربي السبيل الأوحّد للتّمدّن والتّحضّر؛ بل كان أكثر تفهّماً للواقع، وأكثر دراية بثقافة العقل الجمعي، وأشدّ حرصاً على إثبات هويته ومشخصاته، وحقّها في الوجود، والحفاظ عليها من حملات التغريب التي أرادت طمسها ومحوها باسم التّمدّن، مُستهدفاً توعية العقل الجمعي بأن النّافع من التّراث هو ما يمكننا من مواجهة الواقع المعيش. شأنه في ذلك شأن مُجدّدي عصره الذين رفضوا الفناء في الغرب، واضطلعوا برسالة الإصلاح، وآمنوا بحوار الحضارات، وتسلّحوا بالمعارف الحديثة<sup>2</sup>؛ أي أنّ الشدياق وقف في وجه الجمود الذي يفرضه التّشبّث بالتّراث كما هو بالدّرجة نفسها التي واجه بها التّقليد الأعمى للأنموذج الغربي الذي رآه وعاشه قرابة ربع قرن من الزّمان.

### نقد مظاهر المدينة الغربية

نحا الشّدياق منحى فرنسيس بيكون في التّحذير من الوقوع في أوهام السّوق من تصديق الآراء الدّائعة دون فحص وتمحيص، وكان من أهمّ تلك الآراء الدّائعة الصّيت في عصره، ما كان يُردّده بعضهم في ذكر محاسن المدينة الغربيّة ومزاياها، والتي يتمّ تصويرها في أغلب الأحيان على أنّها خالية من العيوب، وأنّها كلّها ذات محاسن ومزايا لن تصل إليها الشعوب الأخرى إلا بعد تطوّر طويل عبر عشرات السّنين. وهذا ما أنكره الشدياق بعد الرّؤيا والمعاشية، وبيّن أنّها من الأوهام التي تملأ رؤوس الجهلاء وما أكثرها، ومنها في ما يقوله الشدياق: «مثال ذلك: وهم النّاس بأنّ مدينة باريس هي أجمل مدينة في الدّنيا، مع أنّي رأيت فيها من العيوب ما لم أره في غيرها»<sup>3</sup>.

1- أحمد فارس الشدياق، فلسفة التربية والأدب، مكتبة السكة الجديدة، القاهرة، 1924م، ص 27-28.

2- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق - قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 134.

3- أحمد فارس الشدياق، السّاق على السّاق فيما هو الفاريق، أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام، المكتبة التجاريّة، القاهرة، 1920م، ص 264.

بناءً عليه، رأى الشدياق أن من أعظم الأوهام الاعتقاد بأن كل الأوروبيين مُتمدنين، وأن طباعهم وسلوكهم هو الأنموذج الذي يجب علينا اقتفاؤه. ويُنَّ أن همجية بعضهم تفوق بكثير ما نطلق عليه جموح البرابرة. فمنهم من احترف اللُصُويَّة، واشتغل بالدَّجل والشَّعوذة وولع بالتَّطْيُر. ونزع إلى أن معظم الفجور في البلدان الأوروبيَّة يظهر في المُدن؛ فالنِّساء في باريس يُمارسن الفحشاء حسب الهوى دون أدنى اهتمام لعداسة الحياة الزَّوجيَّة. وأن الأميَّة مُتفشِّية بين الرِّجال والنِّساء في معظم القرى، في حين يسودُّ الجهل بالمعارف العامَّة، وقلة الوعي في الطبقات الدُّنيا وخاصَّة بين المزارعين والحرفيِّين. أمَّا الصِّداقة، وطيب العشرة، والألفة، واحترام الكبير، والعطف على الصَّغير، وعطف الوالد على أبنائه، والدَّفء الأُسْرِي، والمودَّة والرَّحمة؛ فهي من التَّقاليد التي تندر في المجتمع الأوروبي الذي جعل العمل لكسب المال شاغله الأوَّل<sup>1</sup>.

وهكذا، يكشف الشدياق المُخبِّأ، ويفضح المستور في المجتمع الأوروبي، وينظرُ نظرةً موضوعيَّةً لمعنى التَّقَدُّم والمدنيَّة. فلم يقف مقياسه للتَّقَدُّم عند العلوم والصِّناعات، أو النُّظُم السياسيَّة، أو الإداريَّة فقط؛ وإنما وضع على مقياسه للتَّمَدُّن مختلف الجوانب من علميَّة، واقتصاديَّة، وسياسيَّة، وثقافيَّة، وأخلاقيَّة، واجتماعيَّة. وهذا ما تجلَّى واضحًا في نقده لمختلف المظاهر المدنيَّة الغربيَّة، كما يلي:

### 1. نقد نظام الطبقيَّة السائد في الحياة الاجتماعيَّة الغربيَّة:

أخذ الشدياق على المدنيَّة الغربيَّة العديد من المآخذ كان من أهمِّها: نظام الطبقيَّة الجائر؛ حيث تمَّ تقسيم المجتمعات الغربيَّة طبقًا لوصف الشدياق إلى خمس طبقات؛ تضمُّ الطبقة الأولى الأمراء، والوزراء، والنِّبلاء، وذوو المناصب السَّامية، ويلحق بهم الأساقفة. أمَّا الطبقة الثانية فيُمثِّلها الأعيان أو العليَّة، وهم الذين يعيشون من أرزاقهم وأملاكهم لا من معاطاة شغل أو حرفة، وليس لهم جلاء أي لقب تعظيم. والطبقة الثالثة هي التي تضمُّ العلماء والقضاة والفقهاء، ويلحق بهم القسيسون والتَّجار وأهل المراسلات. في حين يُمثِّل الطبقة الرَّابعة التَّجار أصحاب الدُّكاكين والكُتَّاب، وهم الذين يحتاجون إلى تحصيل معاشهم بالاحتراف، ولكن من دون ابتذال ماء الوجه. أمَّا الطبقة الخامسة فيُمثِّلها أهل

1- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق- قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 173.

الحرف والصّنائع والعملّة، ويلحق بهم الفلاحون وهم الجمهور الأكبر<sup>1</sup>. ينتقد الشدياق ذلك النّظام الجائر الذي يجمع بين الثّراء الفاحش والفقير المُدقع والمُفجّع، ويبرر ذلك بتبنيّ الغرب النّظام الرّأسماليّ الذي يرفع شعار «السّيادة لمن يملك». ويرى أنّ من عيوب ذلك النّظام تصارع طبقاته، وحقد الأدنى منها على الأعلى، وتزايد جرائم السّطو، وشعور الإنسان بالبؤس من فرط ظلم المجتمع له، وانصراف القادرين على الانغماس في اللذات أيام الآحاد من كلّ أسبوع، وغيبة الإحساس بالأمان والتّكافل الاجتماعيّ، وكثرة الشّحاذين والعاطلين والبغايا والمُشرّدين الذين يتقوّنون من مقابل الزبالة<sup>2</sup>.

كان من أبرز عيوب نظام الطّبقية، كما لاحظ الشدياق، أنّ كلّ طبقة منعزلة عن الأخرى تمامًا فلا تصادقها ولا تتعامل معها إلا في حدود تضمن حفظ مقامات كلّ طبقة، ومن ثمّ يقول الشدياق: «ومن طبع الخاصّة منهم أن يتجنّبوا معايشة العامّة ما أمكن»<sup>3</sup>. وتطلّ تلك الفوارق مُمتدّة ومستمرّة مهما حاول العامّة أن يتهدّبوا، أو وقع الخاصّة في رذائل الأعمال والأقوال. وفي ذلك يقول الشدياق: «فكان ترتيب النّاس عندهم بمنزلة ترتيب أعضاء الجسد، بمعنى أنّ لكلّ عضو خاصيّة لا يتعدّها ولا تتعدّها. فالرّأس لا يزال رأسًا، واللّسان وإن سرى فيه الخرف والفند والعمور والصّمم والدرد. والقدم لا تزال قدمًا وإن هي أنجته وأنجت الجسم كلّ»<sup>4</sup>. كما يأخذ الشدياق على ذلك النّظام الطّبقيّ أنّ الطبقة العُليا هي التي تتحكّم في كلّ شيء في الدّولة، بداية من سياسة الدّولة إلى ما يُقدّم من معارف عامّة في الصّحف، أو من علوم في المدارس، وذلك تبعًا لمصالحهم.

إذا كان الشدياق ينتقد بشدّة النّظام الطّبقيّ الجائر الذي رآه في أوروبا، ويرى أنّه نظام غير إنسانيّ، فإنّه - في الوقت نفسه - يُحبّد نظام الطبقات في ميدان الكفاءة العلميّة حتّى لا يستوي الذين يعلمون بالجهلاء والحمقى والحاquدين والفاشليين.

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخبّأ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 86-87.

2- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق - قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 181.

3- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخبّأ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 159.

4- المصدر نفسه، ص 158.

## 2. نقد القيم الخلقية والدينية السائدة في الغرب:

يرى الشدياق أنّ الخواء الروحيّ السائد في الغرب، والذي أعقب تصدّع الكنيسة الأوروبية في الوجدان الغربيّ، هو العلة الحقيقية وراء الانحطاط الأخلاقيّ الذي تفشّى في مختلف الأقطار التي زارها؛ إذ لم تستطع القوانين الوضعيّة أن تضبط السلوك المنحرف، أو أن تُهذّب الغرائز. ومن ثمّ، يُحذّر الشدياق المجتمعات الشرقيّة من مغبة مُسايرة الغرب في التّكسر للدين، أو انتحال المذاهب الدينيّة الغربيّة - كالدين الطبيعيّ والرّبوبيّة والأادريّة - باسم الحرّيّة.

من أهمّ ما يرصده الشدياق من انحطاط أخلاقيّ هو ما يأخذه على أهل باريس؛ إذ يقول: «ومن ذلك أنّ كثيراً منهم ولا سيّما أهل باريس يعيشون مع النساء عيش المتعة، ويأتي لهم بنون وبنات وهم على تلك الحالة، ولا يتزوجوهنّ زواجاً شرعيّاً، فكيف يحبّ الرّجل امرأة ولا يتزوجها لا سيّما وقد ولدت له أولاداً وربّتهم؟!»<sup>1</sup>. فلا غضاضة في أن تستعين الزّوجة بعشيق، أو أكثر لإمتاعها إذا ما احتاجت إلى ذلك؛ بل ربّما يقودها الزوج إلى أحد أصدقائه تعبيراً عن حُبّه لها، ولا تعيب الأمّ على ابنتها تقبيل صديقها؛ إذ يشمّرُ الشدياق من تلك العادات الغربيّة، ويحمد الله على عدم وجودها في البلدان الإسلاميّة.

كما يأخذ على الإنجليز قسوة قلوبهم وتفضيلهم للمال على الابن، والأم، والأب، والزّوج، والزّوجة، ومن ذلك ما يذكره الشدياق: «إنّ امرأة شكّيت عليها بأنّها قتلت أصغر أولادها، فعند الامتحان علم أنّها قتلت من قبله سبعة، وأنّه كان الثامن... ولمّا سُئلت عن ذلك قالت: «قد قتلتهم خوف الإملاق». ومنها أنّ رجلاً كان له امرأة وأربعة أولاد منها، وكان الرجل والأولاد منتظمين في سلك جمعيّة، من أصولها أنّه متى يمّت أحد من أعضائها يدفع لوارثه خمس ليرات، فطمعت المرأة في نيل الدرهم، حتّى سمّت زوجها وكان ابن خمس وخمسين سنة، وأظهرت أنّه مات حتف أنفه فقبضت المبلغ المذكور، ثمّ سمّت ابنها الأكبر وله من العمر ست وعشرون سنة، فمات وقبضت المبلغ، ثمّ سمّت الثالث وسنّه إحدى وعشرون سنة، فمات وقبضت المبلغ، ثمّ سمّت الرابع فمرض واستدعي بطبيب، فلمّا أتى الطّبيب علم أنّه مسموم، فعند ذلك حصل البحث والتّفتيش، ونُبشت جثث إخوته وسُرحت.

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخبّيّ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 330.

فتحقق أنهم كلهم ماتوا مسمومين»<sup>1</sup>. وهكذا، لم يهتم الغربيون بالأخلاق قدر اهتمامهم بمنافعهم ومصالحهم المادية، فصارت مكارم الأخلاق عندهم أولويات من الدرجة الثانية؛ فيقول: «غير أن الإفرنج لا يفكرون إلا في منافع أنفسهم فقط، فلو أنهم تهذيب أخلاقهم قدر ما يهمهم ملء أكياسهم لكان أولى، فسبحان من أرضى الناس بعقولهم!»<sup>2</sup>. ويُعد هذا سارياً في مختلف القيم الخلقية والدينية على السواء فلا ضير أن تتباين المذاهب والأديان، ويعبد كل إنسان إلهاً على هواه، ما دام ذلك لا يمانع أداء ما يلزم أداؤه للخزنة من المال، وللتاج من الطاعة<sup>3</sup>.

كما أخذ الشدياق على أهل أوروبا (فرنسا - إنجلترا) اهتمامهم بتحصيل العلم من كل فرع وفن وتخصص، ودأبهم في البحث عن كل الحقائق إلا حقيقة واحدة يراها الشدياق أهم الحقائق ألا وهي «الدين» الذي هو ضروري لكل من السائد والمسود، والرئيس والمرؤوس. ولو سلم لهم بأن أهل الفطر الفاتحة غنيون عنه بما فطروا عليه من حُسن الأخلاق، أو بما اطلعوا عليه من علوم ومعارف، لم نسلم بأن الرُعايا الذين هم الجمهور الأعظم في كل البلاد غير مُفتقرين إلى دين يردعهم عن الشرور والمعاصي، ويحثهم على فعل الخيرات، ولولا ذلك لأكل القوي الضعيف. فإذا احتج بكيف يأكله والحاكم من ورائه؟ رأى الشدياق أنه «ليس في كل الأمور يمكن استحضار الحاكم، أو الاستغاثة به، ألا ترى أنه إذا اجتمع مثلاً اثنان في مكان خال وبطش القوي منهما بالضعيف، أفيكون لصاحب الحكم عين باصرة، أو أذن سامعة للقصص؟ فكم من قضية جرت بين الناس وفاتت اجتهاد أهل السياسة والإيالة. ولكن إذا كان الناس يستحضرون خالقهم في السر والعلن، ويخافون عقابه، ويرجون ثوابه، كان لهم بذلك أعظم رادع ووازع، فأنصاف أمة بعدم الدين من أعظم ما يهين شرفها، ويخفض قدرها»<sup>4</sup>.

كما ينتقد الشدياق القيم الدينية في إيمان العوام من أهل أوروبا؛ إذ يكشف

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المخبا عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 125-124.

2- أحمد فارس الشدياق، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب، الأستانة، 1871م، ج 1، ص 250.

3- أحمد فارس الشدياق، الوساطة في معرفة أحوال مالطة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، د. ت، ص 50.

4- أحمد فارس الشدياق، كشف المخبأ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 333.

عن حرصهم على أداء الطُقوس، والذهاب إلى الكنيسة في الآحاد، واعتقادهم في الخلاص، وغيرتهم على قساوستهم دون أن يؤثر ذلك كله في سلوكهم. ومردود ذلك في رأيه وجود الكنيسة اسمياً مع عدم وجود ولا فاعلية لتعاليم المسيح. فهناك أداء شكلي للطُقوس ينتهي أثره ومفعوله بانتهاء الطُقوس ذاتها. فلا أثر يُذكر لتلك العبادات الشكليّة على السُّلوكيات العامّة لأصحابها. كما يرى الشدياق أنّ استبداد الكهنة وتعصّبهم، هو الذي دفع الخاصّة من المُفكرين والفلاسفة والعلماء إلى جحد الدّين. كما عجزت تشريعات المسيحيّة من مُجّارة الواقع ومواكبته، كما كانت عدم قابليّة نصوص الكتاب المُقدّس للاجتهد والتأويل السّبب الرّئيس في عزوف معظم أهل الغرب عن الدّين؛ إذ لم يجدوا فيه ما يفي بمُتطلّباتهم المُلحّة.

### 3. نقد سيادة العنفيّة الغربيّة:

انتقد الشدياق منطق سيادة العنفيّة في العنفيّة الغربيّة؛ فدستور العالم الغربيّ هو البقاء للأقوى، وآفة المدنيّة هو العنفيّ الذي يحكم سلوك الأفراد، ويُسيّس الدّول أيضاً، حتّى أضحي شعار نيتشه «البقاء للأقوى» هو دستور العالم الغربيّ صاحب المدنيّات المُتقدّمة. فالقوة هي التي مكنت بسمارك (1815م - 1898م) من فرض هيمنته على أوروبا، وهي التي مكنت الأمريكيّين من طرد معظم سكّانها الأقدمين من الهنود الحُمْر، وهي التي ستدفع إنجلترا للاستيلاء على العالم بعد تمكّنها من احتلال الهند. فالحقّ في موازنة الدّول وتشكيلها هو ما يقوله السّيف لا اللّسان، فالسّيف أصدق إنباءً من الكتب<sup>5</sup>.

يرى الشدياق أنّ العنفيّ الذي تولّده الخلافات السّياسيّة لا تقلّ ضحاياه عن العنفيّ الدّينيّ، فالعنفيّ هو العنفيّ، فكلاهما وليد التعصّب، وإذا كانت مُتاجرة القادة بوعي الجمهور، واضطراب النّظم، والأزمات الاقتصاديّة، من أهمّ دوافع العنفيّ السّياسيّ، والمطامع الاستعماريّة، فيجب على المصلحين وضع حلول لها، فيهيئون العامّة للثورة التي تطمح في الانتقال من الملكيّة إلى الجمهوريّة، ومن الطبقيّة إلى الاشتراكيّة، ويوضحون لهم أنّ سُماسرة الحروب لا يعبأون بالثمن الفادح الذي تدفعه الشّعوب من دمائها، فبقدر نجاح الخطاب السّياسيّ في السّيطرة على العوام يقلّ العنفيّ، ويستتبّ الأمن، والعكس صحيح بطبيعة الحال<sup>6</sup>.

5- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق- قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 182.

6- المصدر نفسه، ص 183.

أبرز مثال يُقدّمه الشدياق تديلاً على العُنف الذي يسيطر على العقليّة الغربيّة هو ما حدث في الثّورة الفرنسيّة الحمراء (1789م - 1799م)، والتي أزهدت عدداً كبيراً من الأرواح على مدار عشر سنوات كاملة، يقتل فيها الفرنسيّ أخيه الفرنسيّ بلا أدنى شعور بالخزي، أو الخسّة والعار، ويدّعي زوراً وبهتاناً أنّ ذلك من أجل إعلان الجمهوريّة وتأكيد حقوق الإنسان! فلم تخجل الثّورة الفرنسيّة الحمراء من حمل راية الإخاء والحرّيّة والمساواة في حملاتها على جيرانها، وتطلّعتها للاستيلاء على أملاك الدّولة العثمانيّة الواهنة في بلاد الشام والمغرب العربيّ بالقوة؛ إذ لم يتوان الفرنسيّون في وضع مدافعهم أعلى جبل المقطم لضرب القاهرة، ولم يتوان نابليون بونابرت من إعدام جميع الأسرى في مدينة يافا عندما سقطت في قبضته مُستسلمة.

هكذا يتعجّب الشدياق من ذلك الانفصام النَّفسيّ الذي يُسيطر على العقليّة الغربيّة، ففي حين ترفع شعارات العدالة والحرّيّة والمساواة والتّسامح، تقوم - في الوقت نفسه - بتجيش الجيوش لتهدم كلّ حقوق الإنسان فتقتل وتذبح الآلاف في كلّ فجٍّ عميقٍ. وإلى هذا، يشير الشدياق مُندداً بإيوائهم للإرهابيّين السّياسيين، وسيما الذين قاموا بالانقلاب في فرنسا في العام 1871م فحرقوا، ونهبوا، وهتكوا، وقتلوا، ثمّ هربوا إلى إنجلترا بعد انكسارهم، فحمتهم في ديارها<sup>1</sup>.

إنّ آفة المدنيّة الغربيّة عند الشدياق هي العُنف، وخاصّة العُنف الذي تولده الخلافات السّياسيّة، والذي لا تقلُّ ضحاياه عن العُنف الدّينيّ. ويرى الشدياق أنّه إذا كانت مُتاجرة القادة بوعي الجمهور، واضطراب النّظم، والأزمات الاقتصاديّة من أهمّ دوافع العُنف السّياسيّ، والمطامع الاستعماريّة، فيجب على المصلحين وضع حلول لها فيهيئون العامّة للثّورة التي تطمح إلى الانتقال من الملكيّة إلى الجمهوريّة، ومن الطّبقيّة إلى الاشتراكيّة، ومن الاستبداد إلى الدّيمقراطيّة.

### أوجه القُصور في النّظامين: السّياسيّ والتّشريعيّ في الغرب

على الرّغم من مدح الشدياق لنظام الحُكم في أوروبا، وتفصيله القول في ما يختصّ به الملك من أمور، وما يخصّ الوزراء، وما يخصّ نواب البرلمان ومجلس الأعيان، وحدود نفوذ رجال الشرطة التي لا يمكن لهم أن يتخطوها، إلّا أنّه أخذ

1- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق - قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق ص 185.

على نظامهم السياسيّ مأخذ عدّة، منها: اعتقادهم أنّ الملك لا يخطئ، ولا يغرم شيئاً فُقِدَ لأحد الأمة، وأنّ دينه يقدم على دين غيره، ولا تقام عليه دعوى<sup>1</sup>. فإذا كان الشدياق يحمّد للسياسة الغربيّة حُسن ترتيبها للدّواوين والمرافق، ووضع القواعد لضبط سير العمل وانضباطه في الدّواوين المختلفة، والتي تجعل من خدمة المواطنين غاية مرجوةً عند الجميع. فإنّه أيضاً يشيد باحترام رجال الشرطة للمواطنين، ووعيهم بطبيعة عملهم في حفظ الأمن، والتزامهم بالقوانين التي تمنعهم من الاعتداء على الحرّيات، واقتحام المنازل، وإفساد الممتلكات، واعتقال الأفراد بغير جريمة<sup>2</sup>. ولكنّه على الرّغم من ذلك يعيب على بعض الملوك والحكّام في أوروبا نقضهم لكلّ تلك الفضائل في أوقات الحرب، بداية من فرض الضرائب، وقمع الحرّيات، وتهديد أمن المواطنين في الدّاخل<sup>3</sup>.

### الأخذ من الغرب ما يصلح به حال الشرق

سعى الشدياق من خلال وصف ما شاهده في رحلاته إلى أن يقف على حقيقة الآخر من خلال التّعرّف إلى الثوابت والمُتغيّرات في المجتمعات الغربيّة، ثمّ تحليل بنية العقل الجمعيّ لها، ثمّ معرفة المُستجِدّات التي أضفوها على حياتهم فجعلتهم يتقدّمون وينهضون، ثمّ الأخذ منها ما ينفعنا بعد تطوير ما تملكه الذات من تراثٍ نافع؛ أي أنّ الشدياق أراد اقتفاء الأنموذج اليابانيّ الذي بدأ نهضته الحديثة مع نهضة محمد علي في مصر، فعكف على دراسة الذات، ثمّ تدرّج شيئاً فشيئاً في الاقتباس من الغرب؛ ما مكنه من الانتقال بيُسْرٍ من طور الوجود إلى طور التّواجد، ومن مرحلة الصّراع إلى التّنافس والحوار<sup>4</sup>.

بناءً على ذلك، راح يرشدنا إلى آليّة الانتقاء من التّراث، فزعم أنّ أعظم الخطى لاختيار النّافع من التّراث هو ما يساعدنا على مواجهة العالم المعيش؛ أي كلّ ما يتغلّب بنا على المعوقات الحيّاتيّة التي تواجهنا في واقعنا المعيش؛ فالبقاء دائماً للأصلح الذي يستمدُّ قوّته من إيمان ذويه بضروره وجوده، فيبدلون أقصى طاقاتهم

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخبّيّ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 477.

2- المصدر نفسه، ص 419 - 420.

3- عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق- قراءة في صفائح المقاومة، مصدر سابق، ص 185.

4- المصدر نفسه، ص 175.

لتجديده وتحديده وتطويره بمنهجية العقل الأيقاظ الأصحاء. فرأى أننا بحاجة إلى تعلّم لغات الغربيين لا لنثر بها ولكن لتمكّن من خلالها معرفة علومهم، وآدابهم، ومفردات حضارتهم وتراكيبها.

لذلك، امتدح الشدياق الفنون الجميلة في الغرب، ومنها: المسرح والتّمثيل والموسيقى، في حين رفض المخاصرة والمعانقة في الرقص، كما رفض تقليد الموسيقى الغربيّة التي لا تُعبّر عن واقعنا وذوقنا العام. وامتدح حرّية الاعتقاد والفكر والرأي، والحرّية السياسيّة، والفصل بين السّلطات، وضرورة احترام الدّستور وعدم مخالفة مبادئه، وتقدير أهل البلاد الغربيّة المصالح العامّة وتفضيلها على المصالح الشّخصيّة، والحرص على العمل الجادّ لتقدم مجتمعاتهم. كما حمّد لهم شيوع الأمن، وصدق الوعد، وحفظ الأمانة، وعدم قبول المصانعة والرّشوة، وعدم التّعنت على النّساء، وتدريب أولادهم على الأشغال، وعدم تدخّلهم في شؤون الآخرين<sup>1</sup>. ولكنّه عاب عليهم تلك الحرّية المفرطة في عدم تقديس الأديان وازدراء بعض تعاليمها، مُرتيئاً أنّ السّبب الحقيقي وراء ذلك هو عدم قدرة الغربيين على إيجاد نسق يجمع بين العقل وتعاليم الكتاب المقدّس؛ لذلك، ارتضوا الفصل بين المعقول والمنقول، والنّاسوت والآهوت، السّلطة الزمنيّة والسّلطة الدينيّة. كما أخذ عليهم عدم الحرص على صون الأعراض في الاختلاط بين الجنسين، وعدم الغيرة على النّساء كما سبقت الإشارة إلى ذلك. كما عاب على الغربيين رغبتهم الجامحة في السّيطرة على الشّعوب الفقيرة، وخداعهم المتواصل لها تحت مُسمّيات الاستعمار وما هو إلاّ دمار لبلادهم، ونهب لثرواتهم ومُدخراتهم، وتحت شعارات زائفة أخرى مثل: الكوكبيّة، أو العولمة؛ فمن العبث أن تعمل الدول الصّناعيّة الكبرى على تعميم علومها، ومنح خبرتها لجميع الأمم، فتبور تجارتها، وتتعلّط مصالحها، وتنفذ مواردها، وتضعف سطوتها.

لقد أكّد الشدياق ضرورة نقل المخترعات العلميّة إلى بلادنا، ونشر الثّقافة العربيّة بين أبناء الشرق؛ إذ حرص في تصانيفه على تبسيط النّظريّات العلميّة، ووصف أهم المخترعات الحديثة، مثل: البواخر، والسكك الحديديّة، والتلغراف، ومصابيح الغاز، وإبرة المغناطيس، والبالون، والمراصد، والمنابر، والقناطر، والسدود.

1- أحمد فارس الشدياق، كشف المُخبّأ عن فنون أوروبا، مصدر سابق، ص 72 - 74.

ووقف كذلك على أصول المنهج العلمي، وكيفية تطوُّر النظريات بعد نقدها وفحص قواعدها مُرتبياً أن تنشئة العقلية العلمية وتعلم الفنون والصنائع ليس حكراً على شعب بعينه أو أمة دون الأخرى، فلا السلالة الجنسية ولا البيئة الجغرافية هي من تميِّز المبدعين من غيرهم، ولكنها التربية السليمة والتنشئة العلمية دون غيرها التي تُؤهل العقول للتَّمُدُن، أو تقدهم عنه.

مما لا شك فيه أن الشدياق قد نقل إلى الشرق من محاسن الغرب الكثير من الأمور، فكان عنصراً مهمماً من عناصر النهضة الحديثة؛ فهو مُصلح اجتماعي؛ بل من أكبر المُصلحين، ولم يُعرف بعد مقامه في هذا الإصلاح حق المعرفة حتى يومنا هذا فلا تزال الظلمات تغطي على ضياء عقله الرَّاجح وأفقه الواسع كما نبّه إلى ذلك شفيق جبري<sup>1</sup>.

هكذا، عمل الشدياق على ربط الحاضر بإيجابيات الماضي، فالإصلاح لا يمكن تحقيقه بقرارات فجائية؛ بل بتوعية الرأي العام والتوفيق بين الوافد والموروث، وانتحال المذاهب الحديثة في التربية والتعليم؛ أي الأخذ من الغرب بكل ما ينفع الشرق مع الحفاظ على كل ما هو أصيل من تراث الشرق، فلم يُحبذ القديم ويكتفي بالتُّراث خوفاً من الجمود والتخلف، والوقوع في براثن الانغلاق الفكري. ولم يسع إلى التقليد المُنبهر بالغرب؛ بحيث إنّه لا يصنع أدنى مجد للذات وتضيع الهوية، فيصبح كالمُنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

## خاتمة

هكذا تميّزت رحلات الشدياق من غيرها من الرّحالة العرب المُحدثين سواء المشهورة التي تناولها بعضهم بالدراسة والتحليل، من أمثال: رفاعة الطهطاوي في «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» 1834، ومحمد عياد الطنطاوي في «وصف روسيا» 1855، ومحمد كرد علي في «غرائب الغرب» 1940، وخير الدين التونسي في «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» 1867، وجرجي زيدان «الرّحلة إلى أوروبا» 1912. أو تلك التي ظلت حبيسة الأدراج على الرّغم من جدارتها بأن يُلقى عليها الضوء، مثل: «الرحلة إلى فرنسا» 1846 لابن أبي الضياف، و«النزهة الشهية في الرحلة السلمية» 1856 لسليم بطرس، و«رحلة إلى أوروبا» لفرنسيس

1- شفيق جبري، ثلاث رحلات: الطهطاوي- الشدياق- كرد علي، مصدر سابق، ص 389-388.

مراش، ورحلة نخلة صالح «الكنز المخبأ للسياحة في أوروبا» 1867، و«الرحلة النّحليّة» 1874 للويس صابونجي، و«صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار» لليبرم الخامس، و«الرحلة الأندلسيّة» 1888 لعلي الورداني، و«رحلة إلى أوروبا» 1888 لمحمد شريف سالم، وغيرها من الرّحلات التي انعكس أدبها على النهضة العربيّة بما يلي :

1 - إنّ رحلة الشدياق قد استغرقت قرابة ربع قرن وكانت سياحته في مالطة وإنجلترا وفرنسا. وهي أكبر مدّة استغرقتها رّحالة عربيّ إلى أوروبا ولأكثر من قطر أوروبيّ. فبغضّ النّظر عن رحلة محمد عياد الطنطاوي إلى روسيا التي استغرقت عشرين عامًا، تراوحت رحلات رفاعه الطهطاوي، وعلي مبارك، وخير الدين التونسي وغيرهم ما بين الخمس والسّبع سنوات، وجلّها كانت إلى فرنسا فقط.

2 - كانت معظم تعاملات الرّحالة العرب مع الهيئات الرّسميّة أو المؤلّفات العلميّة ولم تكن وليدة المعاشة والخبرة العمليّة والاستقراء والاختلاط بجلّ شرائح المجتمع الغربيّ «عوامه وحكامه وحكمانه» كما كان الحال مع الشدياق الذي تميّزت رؤيته النّقديّة بعدم الانبهار بالغرب، وإن رصدت إنجازاته وأشادت بها، وهي رؤية تشي - كما سبق أن أشرنا - بالمعرفة النّاتجة عن المعاشة الممتدّة، والتّعامل المباشر مع الشّرائح الاقتصاديّة الأكثر بؤسًا.

3 - إنّ منهج معظم الرّحالة العرب في تصوير الثقافة الغربيّة كان أقرب للوصف منه إلى النّقد والتّحليل. ولذا، جاءت كثير من أحكامهم متعجّلة تفتقر إلى النّقد الموضوعيّ الذي يتولّد من سعة الخبرة وطول المعاشة. فإذا كان رفاعه الطهطاوي قد نظر إلى الغرب من منظور دينيّ يستحسن من أموره ما استحسنة الدين، ويستقبح من فعالة ما استقبّحه الدّين. وكان محمد كرد علي قد بلغت دهشته من حضارة الغرب وانبهاره به كلّ مبلغ، حيث لم ير فيها إلا حسنات ومزايا. وبين هاتين الرّؤيتين ينقسم الكثير من أصحاب الرّحلات إلى الغرب من المُفكرين العرب. فإنّ رحلات الشدياق قد تميّزت برؤية خاصّة من رحلات غيره؛ حيث كان يسخر من أمور الغرب إذا ما استدعى الأمر سخرية، ويُعظّم منه ما يستوجب التّعظيم.

4 - لم يكن الشدياق موفداً لعمل رسمي من قبل الدولة، كما كان الحال مع الرّحالة السّابق ذكرهم. لذلك، انشغل في رحلاته بالتّعرّف إلى أصول تلك المدنيّات، وتجلّى ذلك في آلاف الصّفحات التي خصّصها الشدياق لنقد مشاهداته ومعارفه وتحليلها.

ختاماً، نقول: إنّه إذا كانت معظم رحلات المُفكرين العرب قد استهدفت بثّ أصول المدنيّة الأوروبيّة في بنية الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وذلك بتبصير الرّأي العام بأهمّيّتها، فإنّ كتابات الشدياق قد عكست روح المقاومة من خلال دعوته الصّادقة إلى تفعيل تلك الأسس بعد تهذيبها وتطويعها للتّطبيق في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة.

### المصادر والمراجع

- 1 - أحمد فارس الشدياق، الوساطة في معرفة أحوال مالطة، مؤسّسة هندايو للتعليم والثّقافة، القاهرة، د. ت.
- 2 - \_\_\_\_\_، كنز الرّغائب في منتخبات الجوائب، مطبعة الجوائب، الأستانة، 1871م.
- 3 - \_\_\_\_\_، السّاق على السّاق فيما هو الفارياق، أو أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام، المكتبة التجاريّة، القاهرة، 1920م.
- 4 - \_\_\_\_\_، فلسفة التربية والأدب، مكتبة السكة الجديدة، القاهرة، 1924م.
- 5 - \_\_\_\_\_، كشف المُخبّأ عن فنون أوروبا، تقديم عصمت نصار، دار الكتاب المصريّ، القاهرة، 2012م.
- 6 - شفيق جبري، ثلاث رحلات: الطهطاوي- الشدياق - كرد علي، مجلّة المجمع العلميّ العربي، الجزء الثالث، المجلد الرابع والثلاثون، تموز 1959.
- 7 - شفيق جبري، أحمد فارس الشدياق، مؤسّسة الرسالة، بيروت، 1987م.
- 8 - عصمت نصار، أحمد فارس الشدياق- قراءة في صفائح المقاومة، دار الهداية، القاهرة، 2005م.